**حتميّة التغيير في النظام العالمي... أم أحلام اليقظة؟**

22-11-2023 | 00:00 **المصدر**: "النهار"

[**جيرار ديب**](https://www.annahar.com/arabic/authors-list/%D8%AC%D9%8A%D8%B1%D8%A7%D8%B1-%D8%AF%D9%8A%D8%A8)

قال الكرملين يوم الاثنين 2 تشرين الثاني الجاري، إنه يتّفق مع الرئيس الأميركي جو [#بايدن](https://www.annahar.com/arabic/news/listing?tag=%d8%a8%d8%a7%d9%8a%d8%af%d9%86) على "ضرورة بناء نظام عالمي جديد"، لكنه يختلف معه في قدرة [#الولايات المتحدة](https://www.annahar.com/arabic/news/listing?tag=%d8%a7%d9%84%d9%88%d9%84%d8%a7%d9%8a%d8%a7%d8%aa+%d8%a7%d9%84%d9%85%d8%aa%d8%ad%d8%af%d8%a9) على بنائه. وفي اتصال لوكالة رويترز قال المتحدث باسم الكرملين، ديمتري بيسكوف، إن الولايات المتحدة تتحدث عن نظام عالمي "يتمحور حول أميركا" لكنه لن يكون موجوداً في المستقبل.

ترى النظرية المادية أنه "في قلب الحتمية التاريخية الماركسية يكمن مفهوم المادية الجدلية"، إذ يعتقد المفكر الألماني كارل ماركس أن التاريخ يتقدم من خلال عملية جدلية، حيث تؤدي التناقضات والصراعات داخل نظام معيّن إلى حتمية التغيير. ويؤثر في هذا المنظور المادي دور العوامل الاقتصادية والعسكرية في تشكيل الأحداث التاريخية وتغييراتها.

إن أردنا تطبيق النظرية الماركسية هذه على النظام العالمي نجد أنه ماضٍ نحو التغيير لأنه يتخبّط في مشهدية ترسم فيها الصراعات العسكرية والاقتصادية حتميتها نحو إحداث التغيير، الأمر الذي بات يطرح إشكالية حول مصير هذا النظام القائم، وسط صراعات حاصلة بين قوة صاعدة تمثل مجموعة من الدول التي تعمل على تقويض أسس النظام والرافضة لرؤية بايدن في نظام عالمي جديد، وأخرى وهي القوى الغربية الفارضة لهيمنتها والتي تريد تغييراً ينسجم مع هذه الهيمنة. فهل العالم إذن أمام تغيير حتمي بحسب القاعدة الماركسية؟ أم هي مجرد أحلام اليقظة للقوة الصاعدة لعدم توفر عوامل التغيير؟

طرح الرئيس الروسي فلاديمير بوتين ونظيره [#الصين](https://www.annahar.com/arabic/news/listing?tag=%d8%a7%d9%84%d8%b5%d9%8a%d9%86)ي شي جين بينغ رؤيتهما إلى "ما بعد النظام الحالي"، معتبرين أن ما هو عليه العالم اليوم، نظام ينحاز انحيازاً كبيراً إلى مصالح الغرب، ولا يراعي طموح القوميات الإقليمية. هذا ما أقلق الغرب الذي لا يتوانى قادته عن إصدار المزيد من التصريحات التي تؤكد نيّة الصين إعادة تشكيل النظام العالمي.

ذكرت مجلة "ذا ديبلومات" الأميركية، ما قاله وزير الخارجية الأميركي [#أنتوني بلينكن](https://www.annahar.com/arabic/news/listing?tag=%d8%a3%d9%86%d8%aa%d9%88%d9%86%d9%8a+%d8%a8%d9%84%d9%8a%d9%86%d9%83%d9%86)، والذي حذّر فيه من أن الصين هي الدولة الوحيدة التي لديها النية والقوة لإعادة تشكيل النظام الدولي. وأكّدت رئيسة المفوضية الأوروبية أورسولا فون دير لاين أن "الهدف الواضح لبكين يتمحور حول إحداث تغيير منهجي في النظام الدولي الذي ترأسه الصين".

وجهت بعض الدول سهام الاتهام إلى المؤسسات الدولية العاملة في النظام القائم، مدّعية أن لا صلاحية لها لتحديد مصير العالم، إذ ببساطة لم تعد على مستوى الأزمات، لأنها في وضعية انحياز تام لقضايا دون سواها، لهذا كانت المطالبة بتعديلها أو حتى استبدالها.

سقطات كثيرة عرفتها المؤسسات الدولية وعلى رأسها منظمة الأمم المتحدة، ففي التاريخ القريب شهد العالم نهاية عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الثانية، نتيجة عدم قدرة هذه المؤسسة على القيام بدور "الضامن" [#الرئيسي](https://www.annahar.com/arabic/news/listing?tag=%d8%a7%d9%84%d8%b1%d8%a6%d9%8a%d8%b3%d9%8a) لأمن الدول وحماية سيادتها، فهل بدأ العدّ العكسي لإحداث إصلاح للأمم المتحدة؟

اعتبر الرئيس التركي رجب طيب أردوغان أن التغييرات التي طرأت على النظام العالمي منذ نشأة الأمم المتحدة حتى اليوم تحتّم خضوع المنظمة لتغيير جذري وشامل. وشدّد أردوغان في رسالة تهنئة للأمم المتحدة بمناسبة يومها العالمي، على ضرورة تكييف هياكل المنظمة على النحو الذي يمكنها الاستجابة للمشاكل على الصعيد العالمي، بما فيها مجلس الأمن.

بالعودة إلى نظرية "جدلية التغيير وحتميته" في الأنظمة والمجتمعات، تطرّق ماركس إلى العوامل المساعدة على التغيير، ولم يتوقف عند تلك التي تمتلكها القوة الصاعدة. لكن قد تكون القوة المسيطرة بدأت تفقد عوامل السيطرة، الأمر الذي سيسهّل على الجدلية حدوث التغيير. لهذا طرح جدياً على الولايات المتحدة التحرك سريعاً قبل الانزلاق نحو حرب عالمية كبرى، عندها قد يجد الغرب نفسه في مأزق حقيقي يدفع به مرغماً نحو النظام الجديد.

فالولايات المتحدة اليوم في مأزق في ثلاث جبهات، مع تحرك روسيا لحرب طويلة في أوكرانيا، وفتح جبهة جديدة في الشرق الأوسط، وازدياد الإغراء لتسليح الصين بسرعة لاتخاذ خطوة في تايوان. لهذا على الولايات المتحدة أن تكون على أعلى درجات اليقظة لهذا السيناريو على أمل ردع الصراع، عبر إرسال إشارة واضحة إلى الخصوم بأن العدوان أخطر على أنفسهم من الاستقرار والسلام.

إن المشكلة تكمن في مقدرة الولايات المتحدة على المواجهة لثلاث حروب متصاعدة في مسارح نائية على الأقل. هذا يتطلب قدراً من الوحدة الوطنية لديها، وتعبئة الموارد، والاستعداد للتضحية التي لم يرها الأميركيون وحلفاؤهم منذ أجيال، فهل واشنطن اليوم على استعداد لفتح جبهات جديدة، ولا سيما أن الرئيس الأوكراني فولوديمير زيلينسكي أعلن في أكثر من مناسبة تراجع الدعم الغربي لبلاده بعد معركة غزة؟

وصلت العلاقات الديبلوماسية بين دول القرار إلى أفق مسدود، وما خرجت به زيارة الرئيس الصيني لسان فرانسيسكو في 16 تشرين الثاني الجاري لعقد قمة ثنائية مع الرئيس الأميركي لم يكن على قدر الأزمات. أو بالأحرى، لم يحاكِ هذه الأزمات المطروحة، حيث العقدة تبدأ بين الرجلين من جزيرة تايوان، وإصرار الصين على ضمّها تحت شعار "الصين الموحدة".

تصوغ النظرية الماركسية في التغيير قواعدها نحو الحتمية التاريخية للتغيير، دون تحديد التاريخ؛ لهذا اعتبر البعض أن محاولات الولايات المتحدة لبناء نظام جديد، ليست سوى "خدعة" لإخفاء نيّاتها الرافضة للعبث بأسس النظام القائم من قبل الطامحين لذلك. لا تريد واشنطن لأخصامها سوى أن يعيشوا أحلامهم اليقظة كي يروا التغيير في النظام، لهذا ستعمل جاهدة كي لا توفر لتلك المادية التاريخية جدليتها كي لا تصل إلى التغيير المنشود.

"جدلية التغيير" الماركسية نجحت في محاكاة الثورة الفرنسية عام 1789 التي غيّرت في التاريخ الإنساني، وأنهت النظام الملكي والإقطاعي ليحلّ مكانه النظام المدني. إلا أنها في جدليات أخرى لم تتكامل عوامل التغيير لديها، فظلت أحلام يقظة عند طالبيها. فهل جدلية التغيير اليوم مكتملة العناصر لإحداث التغيير في النظام العالمي؟ أم لواشنطن عواملها التي ستستغلها نحو التغيير إلى النظام الذي رفضه الكرملين، أو الذي لا يلحظ هواجس الصين وحلفائها؟